المحاضرة الثالثة: الحوارات النظرية الكبرى في العلاقات الدولية:

منذ نشأة الدراسة الأكاديمية للعلاقات الدولية، شهد هذا المجال المعرفي تجاذبات مثل باقي المجالات العلمية الاجتماعية، حول موضوع الدراسة، حدود هذا العلم، المناهج المستخدمة، هل هذه المعرفة في خدمة الإنسانية؟

حيث اختلفت الاتجاهات النظرية والفكرية في تحديد أولويات الدراسة ومناهجها، وهو ما عرف في ادبيات العلاقات الدولية بالحوارات النظرية (الجدل) Debates.

الحوار الأول First debate:

برز هذا الحوار في أعقاب الحرب العالمية الأولى بين مدرستين كبيرتين، هما المثالية والواقعية، فقد دأبت المثالية على دراسة أسباب الحروب وكيفيات تفادي خسائر الأرواح البشرية ودمار البنى التحتية للدول عبر تعزيز القواعد والقوانين والمؤسسات الدولية بغية تحقيق الأمن والسلم الدوليين وإقامة الثقة في العلاقات ما بين الدول، وهي الأطر العامة التي دافع عنها وودرو ويلسون عبر مبادئه الأربعة عشر المرتكزة على احترام سيادة الدول، وحق الشعوب في تقرير مصيرها وعدم التدخل في الشؤون الداخلية للدول، وإحلال الديبلوماسية العلنية محل الدبلوماسية السرية، وتأسيس منظمة دولية كمرجعية عالمية للحفاظ على الأمن والسلم الدوليين، وهي الأفكار التي وجدت تجسيدها بإقامة عصبة الأمم League of Nations.

هذه الأفكار إضافة إلى اعتداد المدرسة بالقيم والمبادئ الإنسانية كموجه للسلوك الدولي جعلها تنطلق مما يجب أن تكون عليه العلاقات الدولية.

بالمقابل، اعتبرت المدرسة الواقعية بأن دراسة العلاقات الدولية يجب أن تنطلق مما هو كائن، من الواقع وليس مما يجب أن يكون، حيث أن الدول تبني علاقاتها الدولية وسياستها الخارجية على مستويات قوتها (Power) ومصالحها الوطنية، ولا يتم الالتجاء إلى القانون الدولي إلا وفق ما يحققهما. وهي الفكرة التي دافع عنها إدوارد كار في كتابه "أزمة العشرين عام Edward Harlet CARR The twenty years crisis" بإثبات أنه لا يوجد انسجام في المصالح الدولية، بل سمتها التضارب والتعارض الذي يدفع دوماً الدول إلى السعي لزيادة قوتها لحماية أمنها ومصالحها القومية.

انتهى هذا الحوار النظري مع نهاية فترة ما بين الحربين العالميتين بتراجع الافتراضات المدرسة المثالية عقب اخفاق عصبة الأمم واندلاع الحرب العالمية الثانية.

الحوار النظري الثاني Second debates:

تمحور الحوار النظري الثاني في العلاقات الدولية حول الأسس المنهجية الواجب اعتمادها لتحليل ودراسة العلاقات الدولية، والذي أفرز مدخلين رئيسيين شكلا قطبا هذا الحوار: المدخل التقليدي والمدخل العلمي Traditional scientific approch، في خمسينات وستينات القرن العشرين، حيث

رأى أنصار التيار التقليدي مثل هدلي بول Hadley bull في كتابه المجتمع الفوضوي The anarchical society أنّ العلاقات الدولية يجب أن تدرس من خلال التاريخ والقانون الدولي والفلسفة السياسية؛ بينما رأى أنصار المدخل العلمي كمورتون كابلان Morton Kaplan في كتابة "النظام والتفاعلات في السياسة الدولية System and process in international politics أنّ سلوك الأفراد والمجموعات والدول عبارة عن نماذج متكررة محكومة بقوانين خاضعة للملاحظة والتجريب، وهي الأفكار التي استلهمها العلميون من افتراضات المدرسة السلوكية Behavioralism.

الحوار الثالث Third dabate:

دار الحوار الثالث في أدبيات العلاقة الدولية حول موضوعها وفواعلها وكيفيات تشكل النظام الدولي (سلوك الدول وتأثيرها في النظام وبنياته) مع بداية سبعينات القرن العشرين، حيث تشكل الطرف الأول من أتباع الواقعية الجديدة (كنييت والتز، جوزيف غريكو، وجون ميرشايمر) الذين يرون بأنّ الدولة هي الفاعل الرئيسي في العلاقات الدولية، وتتسم بالسلوك العقلاني الهادف لزيادة قوتها النسبية للمحافظة على مصلحتها القومية المقترنة بأمنها القومي، على رأسه البقاء في ظل عالم فوضوي وغياب الثقة بين الدول وعدم وجود سلطة مركزية، حيث يقع تعريف العلاقات الدولية كصراع على القوة، واستقرار النظام الدولي يتمّ عبر آلية توازن القوى.

بينما تشكل الطرف الثاني في هذا الحوار من أتباع الليبرالية الجديدة (المؤسسية) مثل روبرت كيوهان وجوزيف ناي الذين يرون بوجود فواعل أخرى غير الدولة كالمنظمات الدولية والمنظمات غير الحكومية والشركات متعددة الجنسيات، ويعتقدون أن غياب سلطة مركزية عالمية يقود إلى التعاون وليس الصراع، حيث أنّ المصلحة القومية تعرّف بالعناصر الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والبيئية مثلما تعرّف بالأمن القومي.

كان هذا الجدل المبني على سيطرة المنهجية العلمية نتاج هيمنة المدرسة الوضعية في العلوم الاجتماعية عامة أساس ازدهار دراسة العلاقات الدولية من حيث التراكم المعرفي مقارنة بالعلوم الاجتماعية الأخرى.

الحوار الرابع Fourth dabate:

مع بداية ثمانينات القرن العشرين ظهرت مجموعة من الكتابات التي تنتقد الأسس الإبستمولوجية والمنهجية التي ميزت الفلسفة الوضعية، حيث رأت أن مشروع الحداثة الذي بنيت عليه الوضعية لم يستطيع تحقيق سعي الإنسان للتحرر والانعتاق وصناعة الخير للبشرية، ماسنح ببروز حوار رابع في العلاقات الدولية بين التيارات الوضعية والتيارات (الجديدة) ما بعض الوضعية النقدية Positivism and post positivism.

ميّز رائد المدرسة الوضعية أوغست كونت August comte بين ثلاث مراحل للمعرفة في تاريخ البشرية:

أ- المرحلة اللاهوتية: حيث تتبع المعرفة من الإيمان بالخرافة والمعجزات والآلهة، وليس البرهان أو الاختبار.

ب- المرحلة الميتافيزيقية: تمتاز بالتفكير والتدبّر في الظواهر، أين تعزى الظواهر إلى تصورات فلسفية (الطبيعة، النار، ...).

ج- المرحلة الوضعية: المبنية على تفسير الظواهر عبر الملاحظة والتجربة.

والملاحظ أن الوضعية في العلوم الاجتماعية تشكّلت من مجموعة اتجاهات مثل الوضعية المنطقية ممثلة في حلقة فيينا Cercle de Vienne، والوضعية التجريبية لأوغيست كونت، والتي حدد منطلقاتها المشتركة أنطوني غيدنز Antony Giddens في كتابه "Politics, sociology and social theory" في:

1. جعل الفلسفة علمية وتطوير نظرية وحدة المعرفة (العلم).
2. الاختبار أساس المعرفة.
3. رفض التأملات الفلسفية ناقصة الدقة والوضوح والتحليل.

ومثّلت المدرسة السلوكية أهم مدارس الوضعية في العلاقات الدولية، بحيث تنطلق من أربع افتراضات:

1. خضوع الظاهرة السياسية لقوانين أو نسبة قوانين.
2. العقل هو سبيل اكتشاف هذه القوانين.
3. المنهج المستخدم هو الملاحظة والتجريب.
4. يُمكن فصل الذات عن الموضوع.

حاول الوضعيون في العلاقات الدولية استخدام نفس الطرق والمناهج المستخدمة في العلوم الطبيعية، حيث يرى كينيت والتز Kenneth Waltz بأنّ سمات النظرية العلمية في العلاقات الدولية تتمثّل في:

1. كونها صحيحة ومحددة.
2. صالحة للتطبيق في كل مكان (ليست نسبية).
3. قابلة للتصديق أو النفي.
4. ذات قوة ومصداقية في الشرح.
5. منسجمة مع التراكم المعرفي السابق.

وقد شكلت مواضيع الأمن القومي والدراسات الأمنية والقانون الدولي واستقرار النظام الدولي والحرب ونظرية السلام الديمقراطي، أهم المواضيع التي استخدمت المناهج والمعرفة الوضعية في العلاقات الدولية، فمثلاً:

- دراسة جاك ليفي Jack Levy: "Historial trends in great power war" 1495-1975 نماذج تاريخية في حرب القوى العظمى (منهج تحليل السياسات والأحلاف).
- Daniel Geller, David Singer "Nations at war": أكثر من 500 تحليل كمي على مستوى الفرد والدولة والنظام الدولي (أسلوب كمي).
- كينيت والتز "نظرية السياسة الدولية" الاستعانة بمفهوم اليد الخفية لتبرير توازن القوى لاستقرار النظام السياسي.
- Robert Giplin "War and change in world politics" إثبات الطبيعة المستمرة للعلاقات الدولية عبر توظيف الاجتماع والاقتصاد والتاريخ حيث توصل لقانون (رضى الدول الأكثر قوة عن الترتيبات القائمة يؤدي إلى استقرار النظام ما يحيل لمفهوم الدولة القانعة عند أورغانسكي).

ويمكن إضافة اجتهادات الوظيفيين وأنصار السلام الديمقراطي في محاولة بلورة قوانين عامة للعلاقات الدولية.

ومنذ ثمانينات القرن العشرين واجهت الوضعية في العلاقات الدولية حملة انتقادات، أهمها:

1. ليس هناك حقيقة مستقلة عن القيم الإنسانية وتأثر الإنسان بمحيطه، وبالتالي ليس هناك قوانين.
2. التعامل بين الفرد والبناء الاجتماعي المنتمي إليه يجعل من المستحيل فصل الذات عن موضوع الدراسة.
3. الظاهرة السياسية لا تتكرّر، هي فريدة ولا يُمكن تعميم نتائج دراستها، وبالتالي لا جدوى من الملاحظة والتجريب.

يصف النقديون الذين انطلقوا من مدرسة فرانكفورت ومدرسة غرامشي، النظريات التقليدية بأنها نظريات شارحة Explanatory theory، نظريات حلّ المشكلات Problem solving theory، ونظريات الوضع الراهن Statuesque theory، حيث يرى روبرت كوكس Robert Cox "أنّ النظرية توجد دوماً من أجل غرض ما ولصالح جهة ما، والهدف هو إعطاء الشرعية للتوزيع الراهن للقوى وللمنظومة المعرفية المهيمنة التي يستند إليها الأقوياء المهيمنون؛ أي "القوة التي تولد المعرفة والمعرفة التي تحافظ على القوة"، وبرأيه يجب الرجوع إلى الظروف الاجتماعية والتاريخية والجغرافية ... للنظرية؛ ويرى كوكس بالمقابل أن المدرسة النقدية بنائية Constitutive قريبة من الموضوع وتبنيه، وتمتلك القدرة على التغيير ومنه تحرير الإنسان Human emancipation، وهو هدف أي جهد معرفي، ويتأتّى ذلك عبر التركيز على القيم والثقافة والهوية والبناء الاجتماعي في دراسة وتحليل العلاقات الدولية.

ويختلف المابعد وضعيون عن الوضعيين في الافتراضات التالية:

1. طبيعة الإنسان ليست معطاة غريزيا كما يفترض الواقعيون والليبراليون، بل محددة بظروف اجتماعية سائدة.

2. تتشكل هذه الظروف تتحدد بصراع تاريخي بين قوى اجتماعية مختلفة لتحدد ظروف السياسة العالمية.
3. للإنسانية جمعاء مصلحة في تحرير الإنسان في ظل الاختلاف في العرق والجنس والدين (المدرسة السنوية مثلا).
4. تحرير الإنسان يكون عبر التحاور وقبول الآخر.
5. المعرفة إيديولوجيا وليس حقيقة.

فبينما تركز الوضعية على عالم مستقل عن إرادة الإنسان تحكمه قوانين، يركز النقديون على القوى الاجتماعية المساهمة في تحديد فكر الإنسان ووعيه ومساهمته في بناء العالم.

يرى البعض أن التيارات الوضعية تتبنى المدخل العقلاني Rational approach، وأنّ التيارات النقدية هي ما يسمى تيارات تأويلية Reflexive، وأنّ البنائية Contructivism هي الجسر الذي يصل شكلي التنظير في العلاقات الدولية. جوهر البنائية هي أنّ الناس يصغون المجتمع والمجتمع يصنع الناس، والقول أحيانا كالفعل (المنظار السياسي)، وهو ما يسمى حوار الفاعل والبناء Agent/ structure debates.

الفاعل "Agent": تستمدّ هذا المفهوم من الوضعية (الدولة التي تسعى للمصلحة).

البناء Structure debate: وهو الإسهام الذي يقدّمه النقديون من حيث الإعتداد بالقيم والهوية والأفكار والتعلم ← المصلحة الوطنية تتحدد من خلال تفاعل بين الفاعل والبناء.